

٧ — العمارۃ والتحيّز

د. راسم بدران

التحيّز لغة من حاز وهو التملك، ومن انحاز وهو الانصراف بالملك إلى جهة ما. والتحيّز معناه شغل المكان، أي الانصراف بالمكان وإضافته إلى شخص ما، وهو أساس التملك، وبهذا المعنى يدل الانحيّاز على كل ما يصرف المواقف إلى جهة محددة، أو ما يوجه الآراء وجهة دون غيرها من الجهات، وعلى ذلك لا يخرج الانحيّاز عن أن يكون اختيارًا محددًا من بين مجموعة معينة من البدائل، يميل المرء في النهاية لأسبابه الخاصة إلى ترجيح أحدها على غيرها جميعًا.

وفي ميدان العلم، فإن الباحث مضطر إلى اتباع منهج محدد في البحث عن الحقيقة وفي البرهنة عليها، وتواجه البحث هنا مشكلة معرفية تتمثل في أي المناهج يتبع في البحث والتحقيق، وهي مشكلة أبستمولوجية تتطلب من الباحث تقديم المسوغات التي تجعله يرجح منهجًا على غيره.

وفي الجملة، ليس ثمة اختيار للباحث إلا في أن يختار، وهذا الاختيار ذاته لن يكون منطقيًا إلى الحد الذي يسمح بتصويره على أنه الحقيقة، وعلى أنه المنهج المطابق حقًا للمادة المدروسة دون سائر المناهج.

وإذن فلا بد لنا ما دام الباحث مضطرًا لأن يعترف بأن قدرًا من التشويه يلحق بالمنهج الذي اصطفاه، فإنه يكون ملزمًا بتسوية اختياره لهذا المنهج ولا يكون ذلك ممكنًا إلا بالرجوع إلى الافتراضات المسبقة

والضمنية التي يقوم عليها هذا المنهج دون التصريح بذلك، وفي بعض الأحيان دون أن يكون الباحث نفسه على وعي بهذه الافتراضات المسبقة التي يستند إليها المنهج الذي رجحه على غيره من المناهج الأخرى.

على أنه وإن كان الانحياز المنهجي حقيقة واقعة فلا ينبغي النظر إلى هذا الأمر على أنه يمثل معطى واحد لا تنوع فيه، ولا تعدد في تجلياته داخل الميادين المختلفة للحياة الإنسانية، فالمناهج التي تتسم بقدر من الانحياز في ميدان العلوم الطبيعية ولربما الرياضية أيضًا قد يكون الانحياز فيها عاملاً ليس له من الأثر - على ما له من أثر بالطبع - مثلما يكون للانحياز في ميدان العلوم الإنسانية التي تتوقف فيه قيمة النتائج في كثير من الأحيان على نوعية المنهج المستخدم في هذا الحقل الإنساني أو ذاك. حتى لكأن النتائج في العلوم الإنسانية عناصر يمكن التنبؤ بها حتى قبل الشروع في البحث العلمي انطلاقاً من المنهج الذي اختاره هذا الباحث أو ذاك.

وإذن فدراسة الانحياز في ميدان العلوم الإنسانية تتسم بكل تأكيد بأهمية أكبر وبقدر أعظم من التعقيد لتعقد المشكلات وتداخل المتغيرات وتعذر الفصل في كثير من الأحيان بين العلة والمعلول حتى وإن لجأ الباحث إلى استخدام نوع من العلية الدائرية يتخذ فيها نقطة انطلاق للتفسير في هذا الميدان أو ذلك من ميادين العلوم الإنسانية.

أما إذا انتقلنا إلى بحث مشكلة التحيز المنهجي في ميدان الفنون فإننا نجد الأمر هاهنا أشد صعوبة مما هو عليه في الحالتين السابقتين، لأنه يواجهنا هاهنا سؤال على قدر كبير من الأهمية: هل ثمة مناهج يمكن اتباعها في الفنون؟ هل ثمة منهج يمكن للمصور أو النحات أو المعماري أن يتبعه في بحثه؟ والفارق كبير بالطبع بين الفن بوصفه إبداعاً وبين الفن بوصفه تاريخاً يجعل همّه سرد قصة هذا الفن أو ذاك حتى وإن كان السرد يتخذ صورة نسق محكم كما هو الحال عند بعض الفلاسفة لأن هذا الشيء يظل تاريخاً ولا يشكل جزءاً من مشكلة المنهج.

ثمة نحت روماني، ورسم إيطالي، وعمارة إسلامية، وموسيقى

ألمانية... إلخ ولكن الأمر هنا يتصل بنسبة الفن إلى قومية ما، أي إلى فكرة روحية محددة في صميم هذه الأمة أو تلك، ولكن هل بالإمكان التحدث عن منهج في العمارة الإسلامية ومنهج في النحت اليوناني ومنهج للرسم الإيطالي وآخر للموسيقى الألمانية.

إذا كنا نستطيع أن نجيب عن هذه الأسئلة بالإيجاب، فإنه يتعين علينا أن نتصدى لمهمة أصعب وهي الكشف عن هذه المناهج في تلك الفنون المختلفة.

أما إذا كان جواباً سلبياً فيتعين البحث في هذه الحالة عن التحيز في معطى آخر يقع خارج منطقة المنهج.

في الفن كما يبدو لا وجود لمنهج، وإنما هنالك رؤى حضارية وثقافية تتجلى في كل عصر بطريقة ما تقود إبداع المبدعين.

إذن البحث عن التحيز سيتم خارج المنهج كما قلنا، سيتم، في البحث في صميم المعطى الثقافي الذي يخلع على الفن هويته الكلية، وهي الهوية الإسلامية أو الألمانية أو الإيطالية من ناحية، ومن ناحية أخرى، في البحث عن التعيين الشخصي لهذا العنصر داخل الإبداع الفني لهذا الفنان أو ذاك، الذي يؤكد انتسابه إلى الكلي الحضاري القومي دون أن يفقد هو لخصوصيته داخل هذا الكلي من حيث هو فنان فرد مبدع بل إن هذه الكلية وهذه الخصوصية تتكاملان بحيث إن الكلية تعمق الفردية والفردية تعمق الكلية فتتمدها بالحرارة والحياة.

والآن نظن أن هناك من يجادل في أن العمارة فن من الفنون بل هي إحدى الفنون الجميلة التي اضطلعت بالتعبير عن أفكار الإنسان ورؤاه منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا فلم يكن النفع في يوم من الأيام إلا جانباً من وظائف العمارة لأن التعبير كان دوماً واحداً من أهم العناصر التي كرست العمارة نفسها لتحقيقها وتجسيدها في تعبيراتها المختلفة عن الروح الإنساني، وروح المعماري، وروح الأمة وثقافتها التي ينتسب إليها المعماري، بما تحوز عليه من فلسفات وعادات وتقاليد

شعبي، شفوي ومكتوب.

وعلى ذلك فإن البحث عن الانحياز في العمارة بوصفها فنًا هو بحث في حقيقته عن الكلي الذي يميز أمة عن أمة، وعن الجزئي أو الخصوصي الذي يميز فنًا عن فن، وعن التفاعل فيما بين هذين العنصرين داخل عمارة بعينها - أولاً وعند معماري محدد ينتسب إلى هذه الثقافة أو تلك - ثانيًا وعن مسار التفاعل الذي يتم فيما بين هذين العنصرين.

ونحن نرى أنه ما دام المعمارى ينجح في تحقيق تركيب خلاق بين الكلي والجزئي فإننا لا نكون في الحقيقة بصدد انحياز وإنما بصدد تعبير مطابق يحقق أعلى درجة من درجات التعبير، والتي يمكن اعتبارها موضوعية بقدر ما هي ذاتية، أي أن الجزئي يتحقق في الموضوعي ويتعين الموضوعي في الذاتي، أي أن الجزئي يكتسب موضوعه، من الكلي، بينما الكلي يحقق خصوصيته في الجزئي، ونظن أن هذه المعادلة هي الصورة الحقيقية التي تسمح للمعمارى وللعمارة بالألا يكونا منحازين.

وبالمقابل نرى أن هناك ثلاثة أشكال يمكن للانحياز أن يتخذها ناجمة عن تلك العلاقة بين هذين القطبين، الأول - أن يكون المنتج المعمارى محققًا الكلي فقط، وفي هذه الحالة يكون مجرد تكرار لا قيمة له، فقد يكون المنتج إسلامي، ولكنه إسلامي لا نسب له لأنه يستعصي نسب إلى فردية بعينها، مما يجعله أقرب إلى صورة مستنسخة من غيره من الأعمال أو صورة فوتوغرافية لها.

وأما الشكل الثاني - فيتحقق في المنتج المعمارى عندما لا يظهر فيه أثر إلا للجزئي والفردى، وفي هذه الحالة يكون العمل أيضًا فاقداً للهوية والنسبة، لاستعصاء رده إلى كلي أو إلى ثقافة بعينها يستمد قيمته منها، لأنه في هذه الحالة يكون عملاً بريئاً أو وحشياً يصعب على المتذوق أن يتبين فيه أي شكل من أشكال الأصالة.

ثمة شكل ثالث - وأخير للانحياز وهو الذي يستعير صاحبه أفكاراً

معمارية من حضارات أخرى غير الحضارة التي ينتسب إليها هو شخصياً، وهو الانحياز السائد اليوم في العالم العربي والإسلامي إذ يستعير بمقتضاه غالبية الممارسين أطهرهم الفكرية وتقنياتهم العلمية وحتى المواد التي ينشئون منها منتجاتهم المعمارية من حضارة أخرى هي الحضارة الغربية.

ولو شئنا المقارنة بين العمارة الغربية والعمارة الإسلامية لأمكن لنا أن نصف الأولى بأنها عمارة ذرية، الوحدات فيها أقرب إلى الذرات النائية التي يضمن لها المعماري كل شيء إلا التواصل والاتصال، فكل ذرة سواء أكانت منشأة أو أسرة أو فرداً يعيش في هذه المنشأة تشكل وحدة مستقلة عن المنشآت المجاورة وداخل المنشأة نفسها بالقياس إلى الذرات الأصغر حجماً المكونة منها، وكأننا هنا بأزاء ضرب من النزعة الذرية الآلية اليونانية القديمة عند كل من ديمقريطس وأبيقور اللذين فسرا نشأة الكون والحياة والموت بتجمع الذرات بفعل المصادفة، وبانفصالها عن بعضها أيضاً بفعل المصادفة لانتفاء الغائية تماماً في الكون بمقتضى النظرية الذرية، مما يفسر لنا أيضاً نشأة المذهب الفردي في أوروبا الذي جاء المعمار ليترجم عنه وليضمن تعميق النزعة الفردية في أوروبا التي هي ثمرة من ثمرات الإصلاح الديني البروتستانتي ابتداء من القرن السادس عشر.

وهذه الذرية تكشف عن انحياز واضح ضد الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي لأنها تفرغه من اجتماعيته تماماً وتحتزله إلى إنسان ذي بعد واحد هو بعد الفردية التي تنحل بدورها إلى سلسلة من المصالح الخالصة ينتهي الإنسان بسببها إلى أن يضع نفسه في مقابل الجميع، فيتحوّل كل فرد على حدة، إلى خصم للجميع، فتكثر نتيجة لذلك حالات الانحراف النفسي والأمراض العقلية، وربما حالات الانتحار، وكذلك حالات الطلاق وغيرها من الحالات...

وبالمقابل فإننا إذا ما نظرنا إلى العمارة الإسلامية وجدناها تنطلق من الآية القرآنية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ ﴿[سورة الحجرات: ١٣]

«صدق الله العظيم».

ومن الواضح أن العمارة التي يمكن أن تشاد استنادًا إلى المبادئ التي تنطوي عليها هذه الآية القرآنية عمارة تستهدف الروحي بمعنى الترابط والتآزر الاجتماعي والنفسي، مما يجعل العمارة - إذا ما أرادت ترجمة هذه الآية إلى منشآت - تعتد بالكتل البشرية الكبيرة، وبالحرص على نوع من التضامن داخل الكتل الأصغر المكونة للكتلة الكبيرة، وعلى السلام فيما بين الذرات الأصغر التي تتألف منها هذه الكتل، وإذا كانت العمارة الإسلامية عمرانًا لا عمارة، ومن البين حسب «ابن خلدون» أن العمران يجمع، بل يوحد بين العمارة والحياة الاجتماعية ضمن كل تاريخي واجتماعي موحد يطلق عليه اسم العمران، وهذا يعني أن العمارة الإسلامية بطبيعتها عمارة إنسانية واجتماعية تعتد بالجماعة ولا تهمل الفرد وتراعي الكلي ولا تنكر للخاص، وهذا يجعلها عمارة تكاد تكون مبرأة من الانحياز لكون منهجها إنسانيًا - إن جاز أن للعمارة منهجًا - وأهدافها ليست سوى الإنسان نفسه.

وللبرهنة على هذا كله سأقوم بتحليل عمليين، أحدهما أنشئ في إحدى أطوار الحضارة الإسلامية الحديثة وهو جامع الإمام تركي بن عبد العزيز والذي أنشئ سنة ١٩٢٠ تقريبًا، وبين أحد أعمالي - المتمثلة في جامع الإمام تركي بن عبد العزيز والذي أنشئ سنة ١٩٨٧ - ١٩٩٢ م على أنقاض الجامع السالف ذكره - لأبين استمرار الانحياز وتواصله بين العمليين.

وإذن فمهمتي الكشف عن العناصر التي تكشف عن التبني الخلاق للمعطيات الثقافية مما يبعد العمل عن أن يكون منحازًا، وتجنب التبني السلبي المقلد، سواء لأعمال من الحضارة الإسلامية، أو لأعمال من الحضارة الغربية مما يؤدي بمن يقتبسونها إلى الوقوع في الانحياز المنهجي والتشويه المعرفي والتكرار التاريخي الذي يؤدي بصاحبه إلى العقم خلف واجهة فنية مزعومة.

وأما مسار التحليل فسيأتي من خلال رؤيتي للعمارة كنتاج لعدد من المعطيات المترابطة ومن أبرزها على التوالي:

* المعطى الثقافي .

* المعطى البيئي .

* المعطى التشكيلي والتقني .

المعطى الثقافي

فالعمارة كتعبير هي محصلة هذه المعطيات جميعها، بل هي التي تفعل دورًا بالغ الأهمية في تثبيت المفهوم لتلك القيم والمعطيات التي تولدت عنها، لأنها بمثابة الإقرار المعلن الذي يضطلع بهذا الدور، والذي يحقق الاتصال والتواصل بين الحاضر والمستقبل مما يجعله حدثًا تاريخيًا ذا قيمة .

سأعتمد في قراءتي لمدينة الرياض - وهي مدينة عربية إسلامية قديمة - على صورة فوتوغرافية التقطتها عدسة مصور عام ١٩٢٠م لمنطقة وسط الرياض، والتي اشتملت من ضمن ما اشتملت عليه قصر الحكم آنذاك والمرتبطة مباشرة بالمسجد الجامع في تلك المدينة .

تضطلع الصورة بالتعبير عن الأهمية البالغة لهذا المنشأ وعن الدلالات الفنية التي يمكن قراءتها من خلال الحركة الكثيفة للناس من حوله . ومما ينم عن التصاق الإنسان المسلم، في تلك المدينة، بحدث العبادة ووعيه التام لأهميته في تسيير يومه هو المصاطب والمتاجر التي احتلت مكانها من حول الجامع فرسمت حدوده كمنشأ جاذب للحركة .

إن هذه اللحظة التاريخية التي استقبلتها عدسة المصور لم تتأثر اعتبارًا من أجل التصوير ذاته، وإنما كانت نتيجة حتمية لحركة المدينة، التي فرضت على المصور تسجيلها، واليوم يعرضها المواطنون المثقفون على جدران منازلهم ومؤسساتهم كشاهد يُعْتَزُّ به لما تحمله من قيمة ثقافية وروحية لهذه الحاضرة العمرانية .

وجدت نفسي أمام سؤال ظل يراودني دائماً ألا وهو: ما الذي يمكنني أن أفعله لأجعل من هذه الرسالة التي توثقها هذه الصورة حياة نابضة في قلب كل عربي مسلم وسعودي. وماذا يجب أن أفعل كي يحسن الجميع قراءة هذه الصورة التي أصبحت في عداد الماضي بعد هدم البناء لتشييد منشأ آخر في مكانه.

وأمام هذه التساؤلات الكبيرة أدركت أهمية انتمائي لتلك الثقافة وروحها، فهي وحدها التي يمكن أن تسعفني لاستنباط قراءة ذات دلالات حضارية خاصة بالحضارة الإسلامية ككل، وبالسعودية ونجد بالذات، فعدت لأبرز بوضوح دور الجامع المرتبط بقصر الحكم والمرافق الحيوية في وسط مدينة الرياض القديمة مما ساهم في قراءة الدلالات السلوكية لهذا الالتصاق.

لقد عكست صلة الربط مع الجوار بوضوح تام الرؤية الاجتماعية لل عمران البشري لأنها جاءت لتعبر من خلال الاندماج والتماثل مع هذه الكتلة البشرية عن قدرتها على توليد نموذج اجتماعي أصيل غير متحيز، أما أوقات الصلاة فقد جاءت لتؤكد أهمية إثراء علاقة الفرد بالفرد من خلال اللقاء الذي يتم تحت سقف الجامع ضمن الطروحات الثقافية التي تحدها طبيعة هذا المكان.

وبهذا أكون قد قمت بمحاولة لتغليف هذا المحتوى السلوكي بغلاف عمراني يستقرئ الماضي بقيمه ومضامينه الأخلاقية، ويحفز إنسان الحاضر والمستقبل على أن يحسن التعامل مع هذا المنشأ ويستوعب معانيه والذي لن يتم إلا بممارسات أولى الألباب، أي بنوع إنساني يتميز بانتمائه لهذه الحضارة الإسلامية، ويمارس حياته من وحيها وفي أطر نظمها.

وهكذا أكون قد أعدت الحياة لتلك الوثيقة - الصورة الفوتوغرافية - عن طريق مفهوم عمراني جديد يستدعي المضامين الحيوية في الصورة - الوثيقة، دون الأشكال التعبيرية المادية منها.

ومن الجدير ذكره هنا أن هذه القصة الروائية لن تتم فصولها وتكتمل دون التنظيم بين رأس الهرم - ألا وهو صانع القرار - وبين المسجد لها على صورة منشأ عمراني حديث. وكأنني أريد أن أقول هنا إن حلم القيمة الأخلاقية وليس التعيين المادي له كما كان في يوم من الأيام - هو الذي راود أحلامي وأحلام صانعي القرار في آن واحد، فجاء ليحوّل الرؤيا الضبابية التي كانت تحملها تلك الصورة إلى رؤيا متعينة تجسدت بوضوح على شكل عمران له من الفعالية على مستوى الحيز المكاني ماله منها على مستوى المدينة ككل فأصبح منشأ شاهدًا على عصره يتجاوز في حضوره الماضي والمستقبل.

هذا يؤكد أن العمارة الإسلامية بطبيعتها عمارة إنسانية واجتماعية تعند بالجماعة ولا تهمل الفرد، وتراعي الكلي ولا تتنكر للخاص. وفيما يتصل بالعملية الإبداعية فإن لا شعوري الفني الذي تكوّن في ظل الثقافة الإسلامية هو من العناصر التي تساهم في صياغة أعمالي المعمارية بوصفها تجليات فنية في ميدان المعمار لبنية ثقافية هي البنية الإسلامية، مدرّكًا بذلك أن المعمار يمثل نمط العمل الفني الذي يتلقى جماعيًا وأن لقوانين هذا التلقي دلالة تعليمية. فالعمل الفني المعماري هو الذي يستغرق في الجماهير لأن طبيعة العمارة تستدعي الاستقبال الجماعي المتزامن له.

لكن الصعوبة التي تواجه المعماري اليوم هي: كيف السبيل لاستنباط نموذج معماري إسلامي مستقل داخل عالم إسلامي شديد الارتباط وعظيم التأثير بما يجري حوله في عصر الحضارة المابعد صناعية؟!

إن إبراز الثقافة الإسلامية معبرًا عنها في صيغة معمارية يستدعي منا كل في حقل اختصاصه أن يعيد صياغة الرؤى الإسلامية بصورة تسمح له بأن يكون قادرًا على المحافظة على هويته من ناحية وعلى عدم الدخول في تناقض وظيفي مع منجزات العصر منسجمًا مع الذوق المعاصر للمسلمين، هذا الذوق الذي يصاغ في الغالب عن طريق أجهزة

الإعلام التي ليس للمسلمين سلطة عليها ولا حتى في بلاد الإسلام.

إن التكوين العمراني لجامع قصر الحكم يعبر خير تعبير عن افتراض يقوم فحواه على التفاعل بين هذا الحيز المكاني - الإيمان - والبنى الحضارية للأمة، الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية. لقد حطم هذا النموذج الانعزالية التي فرضت على دور العبادة وعلى المسجد بالذات، في السابق كان حدث العبادة يضيف على الممارسات الأخرى التي كانت تتم داخل المسجد، في جواره أو في محيطه - القيمة السلوكية، التي حافظت بدورها على التوازن النفسي والروحي للأمة.

وعندما أفرغ الجامع من محتواه السلوكي ليقى حدث العبادة كأداة دون ما يرافقه من أحداث الحياة اليومية، تلك الأحداث التي كان يضيف عليها حدث العبادة شيئاً من القداسة والروحانية أصبح الجامع شكلاً خالياً من أي مضمون، بالرغم من كل الاجتهادات المعمارية التي تصاغ لتشكيله. إن هذا الفصل بين الجامع ووظائفه الشاملة المرتبطة بمجريات الحياة اليومية هو بعينه التحيز لحضارة الغرب التي تؤمن بالتخصص، بالفصل بين الأنشطة والوظائف.

ولقد تجسدت هذه الرؤيا الثقافية لموقع الجامع في المجتمع الإسلامي بشكل مباشر وصريح في مشروع جامع علي بن أبي طالب في قطر بالرفض الكامل للقوانين والأنظمة التي فرضتها الهيئة الأجنبية المشرفة على هذا المنشأ بالتخطيط لموقعه والتي كانت تعكس مفهوم الحضارة الغربية وقيمها حول دور العبادة في النسيج العمراني لأية مدينة.

أما جامع الدولة الكبير في بغداد فإنه يمثل رؤيا متحيزة من حيث اختيار موقعه النائي البعيد عن حياة المدينة وحركتها، فجاء الطرح ليقترح الجامع كنواة لمدينة أخرى جديدة تكون بمثابة البوتقة التي تنصهر في داخلها مع أحداث الحياة اليومية من خلال نسيجها الحضري، لقد بدا هذا واضحاً من خلال معالجتي للمكان والحيز العمراني للجامع ومرافقه.

المعطى البيئي

لا شك أن الوعي الثقافي ينعكس على حساسية التعامل مع العنصر البيئي «الأيكولوجي» فحالما ندرك خطر الغزو الثقافي الذي سرعان ما يخرق مقومات الوعي لدينا لبدو على هيئة أنماط استهلاكية مغرية ومتعددة المظهر نتبين الأهمية البالغة للتعامل بدقة ووعي مع مكونات المعطى البيئي - الأيكولوجي بعناصره المتعددة من مناخية وجغرافية وموارد طبيعية... إلخ.

إننا نسعى لتغيير أنماط الاستهلاك في ضوء وعينا لمعطيات هذا الواقع، كي نمهد لتطوير تقنيات العصر وأدواته لتخدم صورنا الذاتية عن الواقع الذي نعيشه. فهذا الوعي هو الذي سيساهم في الإجابة عن تساؤلات كبيرة تواجهنا أثناء مسيرة التشييد والبناء لمنازلنا وأحيائنا ومدننا.

فعلى الرغم من أن دراستي المعمارية في ألمانيا قد مكنتني من السيطرة على الآلية الذهنية التي يعمل بمقتضاها العلم المعماري الغربي فقد اكتشفت الحاجة إلى البحث عن آلية جديدة تكون نامية نموًا طبيعيًا من داخل ثقافتنا كما هي متجسدة في التصميم المعمارية الإسلامية عبر تاريخ الحضارة الإسلامية.

وإذا فالمسألة في نظري هي كيف نتمكن من اكتشاف آلياتنا الخاصة في التصميم أولاً، وإغناء هذه الآليات المنبثقة من ثقافتنا إغناءً مستمرًا ثانيًا. بحيث يتحول التصميم المعماري لا إلى مجرد رغبة في الانتقال بالتصميم إلى حيز التقنية وإنما أيضًا في البحث داخل هذا التصميم وعبر هذا التنفيذ عن جوانب ما تزال خافية على المعماري المسلم اليوم من تلك الآلية التي يفترض أن الثقافة الإسلامية توفرها في مجال التصميم الحيزي مثلما وفرتها في ميدان علوم اللغة والتفسير والحديث وعلم الكلام.

إن المنظور المعماري عندما كان يقدم في الماضي حلولاً واعية للحيز المكاني والتي كانت تجسد التفاعل بين النتاج العقلي والنتاج التطبيقي إنما كان نتاج وعي ببعد آخر أكثر شمولية لاحتوائه للنتاج

العقلي والنتاج التطبيقي معاً، ألا، وهو الإيمان الذي يضيفي قدرًا من الروحانية على العمل نفسه وعلى التعامل مع الطبيعة ومكوناتها في الوقت ذاته.

إن هذا الطرح لا يتنكر لتقنية العصر ولكنه يخفف من سطوتها واستبدادها بالإنسان عندما تهدر بموارد الطبيعة التي تهددنا بالنفاذ.

إن استخدام أجهزة التبريد «على سبيل المثال لا الحصر»، بإفراط مبالغ به من أجل تحقيق النتائج السريعة هو نفسه الذي سيؤدي إلى هلاك الإنسان عن طريق الإسراف في استخدام المواد الطبيعية.

ولعل هذا الفارق بيننا وبين الحضارة الغربية التي تهدف من خلال البحوث والإنجازات العلمية إلى التحكم التام بالطبيعة وتسخيرها لخدمته، على العكس من الهدف الذي يضعه الباحث المسلم نصب عينيه والذي كان دافعه للبحث دافعًا إيمانيًا يثري من خلاله أبعاد معتقداته الإنسانية.

هذا هاجس دفعني للنظر بجدية في نظم معالجة المناخ في عدد من المنشآت المعمارية التي صممتها، ولعل المسجد الجامع في الرياض - كان نموذجًا لبدايات لا تزال خاضعة للدراسة والتطوير، ولقد تجسدت هذه الرؤية بصورة أوضح في الطروحات التي قدمت لتصميم مقر غرفة الصناعة والتجارة في مدينة الدمام - السعودية أيضًا.

وقد تبدو هذه المحاولة أكثر جدية في عمل مشترك بين زميلي الدكتور عبد الحليم إبراهيم وبينني في مشروع واحة العلوم والفضاء في الرياض - والتي تسعى إلى تقديم صورة واعية تعبر عن الحساسية والشمولية في التعامل مع البيئة والتي من خلالها فتحت لنا الآفاق لندرك كيف تضيفي العمارة بعدًا معرفيًا أوسع.

ولعل القصد من بعض ما ذكر هو إبراز خصوصية التعبير الملتصقة ببيئة جغرافية ومناخية وطبيعية بعينها لتصبح هي بدورها عنوانًا لحضارة هذه الأمة بعينها - ألا وهي الحضارة الإسلامية.

المعطى التقني - التشكيلي

إن العمران جزء لا يتجزأ من تاريخ الفكر، فالجديد فيه لا يلغي القديم، بل إن كل جديد فيه إنما هو في الحقيقة إعادة بناء أو إعادة قراءة للقديم، والتطور هنا يتم من خلال التعامل مع القديم ومن خلال توظيفه أنواعاً أخرى من التوظيف وليس من خلال إلغائه تماماً.

وهذا ما نتمثله بوضوح في الحضارة الإسلامية الممتدة من جنوب شرق آسيا إلى أواسط أوروبا، هذه الحضارة التي انفتحت على غيرها من الحضارات وانتقت واختارت ما يتلاءم ومعطياتها الثقافية، ولا تزال إنجازاتها المعمارية التي تمت تحت إهابها حية حتى الآن لأنها لعبت دوراً فاعلاً في تثبيت الحوار بين الكلي في هذه الثقافة وبين الخاص فيها، وليس أدل على نجاح هذه الحضارة في استيعاب غيرها وتمثله من التنوع الشديد في نتاجها المعماري هذا إضافة إلى الكم الهائل الذي تميز بإضفاء الحياة والحيوية لهذا النتاج، لقد كان هذا عندما كانت الحضارة الإسلامية حضارة قوية لا يهددها خطر الغزو الخارجي ولا نفاذ أنماط الاستهلاك إلى أنظمتها الداخلية لتهددها باستبدال كل شيء من أجل تحديثه.

وعلى النقيض من ذلك فإننا نرفض هذا التحديث المفتعل الذي لا تأريخ له، لأنه يلغي الزمن الماضي من حسابنا لاغياً خصوصيته الثقافية بشكل عام وأدواتها التعبيرية بشكل خاص، هذه الخصوصية التي تزداد أهميتها فيما نحن بصده إذا نظرنا إليها بوصفها نتاجاً تاريخياً يحمل عبر الزمن تصورات وآراء ومعتقدات، وأيضاً طرائق في التفكير وأساليب في التشييد والبناء.

لقد غيرت الحضارة الغربية التي تسود عالم اليوم معالم مدن هامة من حواضرنا التاريخية فغيرت وجه القاهرة وبغداد ودمشق فأصبحت غريبة الطابع في مبانيها ومنشآتها وحتى معالم الفقر في تلك المدن - مدن الصفيح - هي أيضاً اكتسبت طابعاً غربياً تماماً.

أما بعض التجمعات السكنية التي لم تطلها يد الغرب بحكم انعزالها الجغرافي وبُعدها عن مراكز الجذب لحركة الغرب الاستعمارية

ومطامعه الاستراتيجية فإننا نجد تجمعاً حضرياً كمدينة الرياض القديمة التي كان لها الحظ في البقاء وفي أن تلتقط ما تبقى من مفرداتها عين مدركة لأهمية المنجزات العمرانية المحلية والتي هي بمثابة وثيقة هامة تحمل أسباب وشرعية وجودها.

أعود لقراءة تلك الصورة التاريخية للجامع الإمام تركي بن عبد الله في وسط مدينة الرياض ولم تكن هذه المدينة شيئاً آخر غير الامتداد الطبيعي لهذا النمط العمراني الذي مثله هذا المسجد - الجامع وهو حال الكثير من المدن الإسلامية التي تميزت بنمط سائد - هو بحد ذاته يمثل التفاعل الاجتماعي المتنامي بين العناصر الأساسية التي تحفز على التوطن والسكن.

لقد حاولت أن أستشف ذكاء الفطرة الإنسانية في معالجة الحيز العمراني، فتبينت أن حدث التشييد هذا تم وفق برجة ذهنية مسبقة هي أشبه في أحداثها المتلاحقة والمتابعة بتلك التي نراها في أحداث التشييد وفق التقنيات المعاصرة - أن الثابت في هذه الأحداث هو مبدأ التخطيط الذهني المسبق والبرجة، أما المتغير فيها فهو تطور أدوات التعبير من خلال تعقد وتداخل تقنياتها.

لقد كان الناتج التقني في تعبيره يقابل ما أنجز في الماضي من تعابير تشكيلية للحيز المكاني ليقف كلاهما شاهداً على خصوصية هذه الثقافة.

وعندما يتجسد المسجد الجامع نتيجة للتفاعل الواعي بين معطياته الثقافية والبيئية والتقنية - التعبيرية - فإنه يصبح بحد ذاته - مدرسة قائمة ومستمرة، لأنه ذاكرة المدينة والناس، تساعد في إعادة الصياغة لعمرانهم على المستوى الشخصي والعام على حد سواء، وهنا يكمن الدور الفاعل والهام الذي تقوم به العمارة - وبشكل ضمني غير معلن - في تهئية البيئة التحتية لتشيد تجمعات عمرانية واعية برسالتها الثقافية الشاملة لتمهد الطريق للنهوض بالإنسان والأمة، لأن النهضة، أي نهضة، لا بد أن تنطلق من تراث تعيد بناءه بقصد تجاوزه، ومن الخطأ الجسيم الاعتقاد

في أن الذات العربية يمكن أن تنهض بالرجوع إلى الماضي و «اختيار» ما «يصلح» منه، كما أنه من الخطأ الجسيم كذلك الاعتقاد في أن هذه الذات يمكن أن تنهض بالإعراض الكلي عن ماضيها والانتظام في تراث غير تراثها أو الارتقاء في حاضر يتقدمها بمسافات شاسعة، كلا إن الإنسان لا يمكن أن يبدع إلا داخل ثقافته وإنطلاقاً من تراثه. إن الإبداع بمعنى التجديد الأصيل لا يتم إلا على أنقاض قديم وقع احتواؤه وتمثله وتجاوزته بأدوات فكرية معاصرة تتجدد بتجدد العلم وتتقدم بتقدمه.

إننا نسعى لتقديم طرح عمراني يخلو من العبثية والهوائية، إننا نريد أن نأخذ بيد كل مواطن نساعده على قراءة جذوره الثقافية الخاصة التي تميزه عن غيره من الثقافات، بالرغم من أنها هي نفسها تجمعها بغيره عندما يساهم هذا الخاص بالجديد الذي قدمه لحضارته وللإنسانية عامة.

كل ذلك لأن الحدث العمراني كان نتاجاً لتفاعل المعطيات الخاصة بالتعبير الفني مع معطيات البيئة المحلية، والتي أعادت التكوين ونجحت في ذلك من خلال تولد معارف جديدة ناتجة عن تعايش هذه المعطيات كلها داخل الإنسان المدرك لما يعرف ولما يشكل فأنت الصياغة بذلك متكاملة شاملة.

علينا أن نقوم بواجبنا على أكمل وجه، متسلحين بالإيمان الواعي الذي يفتح لنا آفاق الرؤية الإنسانية الشاملة والذي يدفعنا للمبادرة لتقديم منهج يكون له دور فاعل في حضارة العالم في عصرنا، مدركين أن التبني الموضوعي للثقافة الإسلامية هو السبيل الوحيد الذي يجنبنا الوقوع في التبني السلبي المقلد سواء لأعمال من الحضارة الإسلامية أو لأعمال من الحضارة الغربية مما يؤدي بمن يقتبسونها إلى الوقوع في الانحياز المنهجي الذي يجهض مشروع النهوض بالأمة ويحول دون أن تكون العمارة إحدى اللغات التعبيرية التي تبشر بولادة ثقافة جديدة يلعب الإسلام دوراً فاعلاً فيها.